وعلى هذا النحو نستطيع أن نعرف كيف كان أمين يولى لفظ التفسير أهمية توشك أن تغيب عن بعض الرواد الذين كانوا يتعشقون ألفاظا أخرى من مثل النقد والحكم والتقويم . ماذا ننقد ؟ وماذا نقوم ؟ . . ليس أمامنا إلا الألفاظ ، علينا أن نحسن العلم بها وبحياتها وأطوارها وتداخلاتها وضبابها ووضوحها وتعثرها قبل أن نخوض فى شىء آخر . هل يكون النقد شيئا آخر بمعزل عن عثرات الانتقال من مدلول إلى مدلول فى إطار لفظ أو ألفاظ ؟ وماذا تكون العثرة بمعزل عن النظر الخفى فى بعض جوانب حياة الألفاظ . .

والمهم أن أمينا عشق لفظ التفسير ، وعشق لفظ البلاغة . ولم يكن لفظ البلاغة هنا إلا بلوغ معنى من المعانى . . ولأمر ما تجاوب اللفظان فى عقل أمين على نحو ما نحاول فى هذه الانطباعات .

كانت كلمة التفسير نفسها من أمهات الكلمات التى اهتم بها أمين ، وكذلك كانت كلمة التأويل ، وما بينهما من تداخل أو فروق . . ومن المهم ها هنا أن نعرف مدخل أمين إلى ما نسميه باسم البلاغة . . كان مدخل أمين إلى البلاغة هو حياة الألفاظ نفسها واستعمالاتها فى داخل المجتمع ، ومن هنا أوحى أمين فى كتابه (فن القول) أن البلاغة هى حياة الألفاظ فى مجتمع معين وثقافة معينة ، ولذلك كان يعجب من تصور إطار واحد للبلاغة على حين يرى أن الكلمة بطبيعتها توحى بإطارات متباينة تباين حياة الجماعات وثقافاتها .

هذه رسالة أمين فى النهضة الأدبية . كم كان أمين مولعا بأن يحول الدرس إلى تجربة فى فهم نص من النصوص . هذه التجربة التى ضاعت الآن فيما ضاع من تقاليد ناضجة . . تجربة النص كانت تعنى عند أمين أن القارىء يجذب النص إليه . هذا قدر اللغة ، ولكن اللغة تعلمنا شيئا آخر . . وبعبارة واضحة إن اجتذاب القارىء للنص ليس بالأمر الجزاف الذى يقبل دون قيد أو يرفض دون قيد . هذا الاجتذاب هو موضوع المساءلة . . وهنا يرجع آخر كلامنا إلى أوله . بعض القراء يجذبون الألفاظ إليهم لأنهم لايعلمون الكثير عن حياة هذا اللفظ أو ذاك . . أتراهم لو علموا مايكفى من شئون هذه الحياة يستعملون اللفظ استعمالا ثانيا .

هذه هى القضية الأساسية التى تحدث فيها الأستاذ أمين نظرا وعملا . كان يقف عند عبارات لزملائه ، يتأمل بعض مفرداتها ، ويقارن بين استعمالات